

التحرير والتنوير

فموقع هذه الجملة بصريحها وتعرضها من الجملة التي قبلها موقع التعليل لأمر الرسول A بأن يقول لهم ما أمر به والتعليل راجع إلى إحالتهم على تشكيكهم في موقفهم للطعن في القرآن .

لأن حق القرآن أن المبينة أنفسهم وفي الآفاق في الآيات ظهور على يترتب عما سكت وقد A E ما قبله من قوله (أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد) ينبئ عن تقديره أي لا يسمعهم إلا الإيمان بأنه حق فمن كان منهم شاكاً من قبل عن قلة تبصر حصل له العلم بعد ذلك ومن كان إنما يكفر عناداً واحتفاظاً بالسيادة افتضح بهتان وسفه جيرانه . وكلاهما قد أفات بتأخير الإيمان خيراً عظيماً من خير الآخرة بما أضاعه من تزود ثواب في مدة كفره ومن خير الدنيا بما فاتته من شرف السبق بالإيمان والهجرة كما قال تعالى (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) .

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له ولدينه وذلك بما يسر الله لرسوله A ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا والمشرق والمغرب عامة وفي باحة العرب خاصة من الفتوح وثباتها وانطباع الأمم بها ما لم تتيسر أمثالها لأحد من ملوك الأرض والقيصرة والأكاسرة على قلة المسلمين إن نسب عددهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض والتاريخ شاهد بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمر خارق للعادة فيتبين أن دين الإسلام هو الحق وأن المسلمين كلما تمسكوا بعرى الإسلام لقوا من نصر الله أمراً عجيباً يشهد بذلك السابق واللاحق وقد تحداهم الله بذلك في قوله (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) ثم قال (ويقول الذين كفروا لست مرسلنا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم) .

ولم يقف ظهور الإسلام عند فتح الممالك والغلب على الملوك والجبايرة بل تجاوز ذلك إلى التغلغل في نفوس الأمم المختلفة فتقلدوه ديناً وانبثت آدابه وأخلاقه فيهم فأصلحت عوائدهم ونظمهم المدنية المختلفة التي كانوا عليها فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة وأوجدوا حضارة جديدة سالمة من الرعونة وتفشت لغة القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن وتعارفت بواسطتها . ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدين وعلماء العربية وأئمة الأدب العربي وفحول الشعراء ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم .

فالمراد بالآيات في قوله (سنريهم آياتنا) ما يشمل الدلائل الخارجة عن القرآن وما يشمل آيات القرآن فإن من جملة معنى رؤيتها رؤية ما يصدق أخبارها ويبين نصحتها إياهم بدعتها إلى خير الدنيا والآخرة .

والآفاق : جمع أفق بضمين وتسكن فاءه أيضا هو : الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها والناحية من قبة السماء .

وعطف (وفي أنفسهم) يجوز أن يكون من عطف الخاص على العام أي وفي أفق أنفسهم أي مكة وما حولها على حذف مضاف .

والأحسن أن يكون في الآفاق على عمومته الشامل لأفقههم ويكون معنى (وفي أنفسهم) أنهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم أي ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي A ونزل فيه قوله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر وقد توعدهم به القرآن بقوله يوم (نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) . وأية عبرة أعظم من مقتل أبي جهل يوم بدر رماه غلامان من الأنصار وتولى عبد الله بن مسعود ذبحه وثلاثتهم من ضعفاء المسلمين وهو ذلك الجبار العنيد . وقد قال عند موته : لو غير أكار قتلني ومن مقتل أبي بن خلف يومئذ بيد النبي A وقد كان قال له بمكة : أنا أقتلك وقد أيقن بذلك فقال لزوجته ليلة خروجه إلى بدر : والله لو بصق علي لقتلني .

(أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)